المحاضرة رقم (٣)

المحاكاة جوهر العمل الفني :

إذا رجعنا إلى الأصل الاشتقاقي لكلمة "فن" اليونانية، لوجدنا أن هذه الكلمة لم تكن تعني سوى" "النشاط الصناعي النافع بصفة عامة"، فلم يكن لفظ"الفن" عند اليونان قاصرا على الشعر و النحت والموسيقى و الغناء و غيرها من الفنون الجميلة، بل كان يشمل أيضا الكثير من الصناعات المهنية كالتجارة و الحدادة و البناء وغيرها من مظاهر الإنتاج الصناعي." من هنا نجد أرسطو يدرج الفن ضمن ما يمكن تسميته بالمعارف الإنتاجية التي تعني بصنع الأشياء ، بما في ذلك بناء البيوت و الحصون، وصناعة الملابس والزجاج ، بل كل ما يمكن أن ينتجه الإنسان كوضع القصائد والخطب.

وإن الفن بهذا المعنى ينطوي على قيمة صناعية و إنتاجية تبعده عن أن يكون مجرد صدى للجمال الطبيعي. و إذا كان مؤرخو الفلسفة قد نسبوا إلى أرسطو أنه قال إن الفن محاكاة للطبيعة وفي كتاب " فن الشعر" كان دائما ينظر إلى الفن باعتباره يصنع ما عجزت الطبيعة عن تحقيقه، وإن مهمة الفنان لا تنحصر في إمدادنا بصورة مكررة لما يحدث في الطبيعة وإنما تنحصر في العمل على تعديل الطبيعة وتبديل الواقع وتنقيح الحياة. حقاً إن الفنان قد يستلهم الواقع، أو يستوحي من الطبيعة ،ولكن من المؤكد أن العمل الفني لا يمكن أن يكون هو الواقع عينها.

ولقد اعتبر أرسطو " أن الفن في جوهره وأصله هو محاكاة للطبيعة من طرف الإنسان. وهذه المحاكاة هي طبيعة غريزية في الإنسان،وبواسطتها يستطيع الطفل مثلا أن يتعلم اللغة من خلال تقليده لما يصدر عن الكبار من كلمات، ولولاها لكان التعلم مستحيلا . بهذا المعنى فالنزعة إلى المحاكاة تولد مع الإنسان، وبها يكتسب بعض المعارف الأولى.

يقول أرسطو:

"يبدو أن الشعر نشأ عن سببين،كلاهما طبيعي،فالمحاكاة غريزية في الإنسان تظهر فيه منذ الطفولة، كما أن الناس يجدون لذة في المحاكاة ... وسبب آخر هو "أن التعلم لذيذ، لا للفلاسفة وحدهم ، بل وأيضا لسائر الناس. فنحن نسر برؤية الصور لأننا نفيد من مشاهدتها علما ونستنبط ما تدل عليه" (٧).

هكذا يبدو أن الشعر عند أرسطو نشا عن أمر طبيعي في الإنسان،لأن سببيه طبيعيان وهما:

١- الميل إلى المحاكاة، وهو ما يميز الإنسان عن سائر الحيوان ويمكنه من اكتساب معارفه الأولى.

٢ – شعور الإنسان باللذة أمام أعمال المحاكاة.

ويرجع أرسطو نشأة الشعر إلى نزعة طبيعية أيضا في الإنسان، وهي ميله إلى اللحن والإيقاع باعتبارهما عنصرين جوهريين في الشعر . من هنا فالشعر نشأ عن المحاكاة كفطرة إنسانية من جهة، وعن ميل الإنسان الطبيعي إلى اللحن والإيقاع من جهة أخرى.

يقول أرسطو:

"لما كانت غريزة المحاكاة طبيعية فينا ، شأنها شأن اللحن والإيقاع ، كان أكبر الناس حظا من هذه المواهب في البدء هم الذين تقدموا شيئا فشيئا و ارتجلوا ، و من ارتجالهم ولد الشعر" (٨) .

ولقد أولى"أرسطو" الفن و الشعر اهتماما بالغاً؛ فإن كان "أفلاطون" قد استخلف بالشعراء و طرد الشعراء من جمهوريته، فإن "أرسطو" أعاد الاعتبار للشعر و اعتبره وسيلة

(7) R. P Hardie The Poetics of Aristotle Mind N. S. IV (1895), P. 350 – 64.

(٨) أرسطو: فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ص١٢.

للتعلم مثله مثل الفلسفة؛ فالشعر يعلمنا الفضيلة عن طريق التخيل، أما الفلسفة فتبين لنا صواب الاعتقاد بالاعتماد على الاستدلال. و إذا كانت الفنون محاكاة، فإنها تختلف في أمور ثلاثة:

١- إما تختلف في مادة أو وسيلة المحاكاة.

٢- أو تختلف في موضوع أو مضمون المحاكاة.

٣- أو تختلف في طريقة المحاكاة

أما فيما يخص وسيلة المحاكاة، فيتحدث أرسطو عن ثلاثة وسائل رئيسية هي:

١- الوزن (الانسجام).

٢- اللغة.

٣- الإيقاع.

" فالوزن و الإيقاع يستعملان معا في الضرب على القيثارة ,أما الرقص فيعتمد الوزن وحده دون الإيقاع , فالراقصون يحاكون عن طريق الحركة الموزونة إما انفعالات أي عواطف و مشاعر، و إما أفعال أي سلوكيات وممارسات إنسانية محددة، و إما شخصيات معينة بكل أوصافها الخارجية أو الداخلية. وقد تعتمد فنون أخرى على اللغة فقط سواء أكانت تلك اللغة نثرا أو شعرا